الفصل الرابع

بصائر في الخشوع في الصلاة

١- قال **سري السقطي**: تصفية العمل من الآفات أشد من العمل.

وقال **وهيب بن الورد**: لا يكون همّ أحدكم في كثرة العمل، وليكن همّه في إحكامه وتحسينه، فإنّ العبد قد يصلي وهو يعصي الله في صلاته، وقد يصوم وهو يعصي الله في صيامه.

وقال **مالك بن دينار**: الخوف على العمل ألّا يتقبل أشدّ من العمل.

وقال **يوسف بن أسباط**: تعلموا صحة العمل من سقمه، فإني تعلمته في اثنتين وعشرين سنة.

٢- وقال **وهيب**: آفة الخلق في حرفين: اشتغال بنافلة وتضييع فريضة، وعمل جوارح بلا مواطأة القلب، وإنما مُنعوا الوصول بتضييع الأصول.

obeikandi.com

وقال **ابن السماك**: الأخذ بالأصول وترك الفضول من فعل ذوي العقول.

وسُئل **ذو النون المصري**: ما لنا لا نقوى على النوافل؟ فقال: لأنكم لا تصحون الفرائض.

٣- وقال **أبو سليمان الداراني**: العارف إذا صلّى ركعتين لم ينصرف منهما حتى يجد طعمهما، والآخر يصلي خمسين ركعة لا يجد لها طعماً.

٤- وقال **أيضاً**: إذا فاتك شيءٌ من التطوع فاقضه، فهو أحرى ألّا تعود إلى تركه.

٥- وقال **بشر الحافي**: لا يجد العبدُ حلاوة العبادة حتى يجعل بينه وبين الشهوات حائطاً من حديد (رواهنّ في الحلية).

قلتُ: المراد عدم الانهماك فيها أو الانشغال بها وأمّا مباشرة تناول الحلال منها دون سرفٍ ولا نهمةٍ، فهذا لابد منه.

obeikandl.com

٦- قال **شيخ الإسلام**: الذي يعين على الخشوع شيئان: قوة المقتضي وضعف الشاغل.

أما الأول: قوة المقتضي: فاجتهاد العبد في أن يعقل ما يقوله وما يفعله، ويتدبر القراءة والذكر والدعاء، ويستحضر أنه مناجٍ لله تعالى كأنه يراه، فإن المصلي إذا كان قائماً فإنما يناجي ربه. والإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» ثم كلما ذاق العبد حلاوة الصلاة كان انجذابه إليها أوكد، وهذا يكون بحسب قوة الإيمان.

والأسباب المقوية للإيمان كثيرة، ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «**حُبِّب إليَّ من دنياكم: النساء والطيب، وجُعلت قرَّة عيني في الصلاة**». وفي حديث آخر، قال: «**أرحنا بها يا بلال**»، ولم يقل: أرحنا منها.

أما الثاني: زوال العارض: فهو الاجتهاد في دفع ما يشغل القلب من تفكر الإنسان فيما لا يعنيه، وتدبر الجواذب التي تجذب القلب عن مقصود الصلاة، وهذا

في كل عبد بحسبه، فإن كثرة الوسواس بحسب كثرة الشبهات والشهوات، وتعليق القلب بالمحبوبات التي ينصرف القلب إلى طلبها، والمكروهات التي ينصرف القلب إلى دفعها.

٧- في إكثار النبي ﷺ من الأذكار في الصلاة تنبيهٌ على أهمية هذه الأذكار لمن أراد الخشوع في الصلاة. كما فيه التنبيه على أهمية الذكر عموماً في الخشوع في الصلاة.

فعلى مريد الخشوع في الصلاة أن يكثر من ذكر الله ليلاً ونهاراً حتى إذا دعا أو ذكر الله في صلاته أمكنه تدبر ما يقول؛ فإنّ حقيقة الذكر هي عقد القلب على ما يقوله اللسان، وهذا يحتاج إلى تعود وتدرب وإكثار، والله المستعان.

٨- ينبغي للمؤمن أن يعلم أنّ الصلاة اختبارٌ حقيقي لإيمانه، فإنّ احتمال قلبه لإطالة القراءة في القيام وإطالة الركوع والسجود وما بعدهما وإطالة الذكر والتضرع والثناء علامةٌ على قوة الإيمان؛ فكلما قويَ إيمان

العبد، لم يكد يجد الملل في الصلاة، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ (البقرة: ٤٥)، فإذا وجد الملل كان ذلك علامةً على ضعفٍ في الإيمان، ولكنّ الناس متفاوتون في ذلك تفاوتاً عظيماً، فمنهم من يجد الملل دون أدنى إطالة ومنهم من لا يجده إلّا بعد الإطالة الشديدة ومنهم الوسط في ذلك. ولكون هذا الاختبار الإيماني الفعلي هاماً، فقد حرص ﷺ ـ والله أعلم ـ على عقده أسبوعياً ويومياً وعلى فترات متفرقة، «**فكان يطيل يومياً في صلاة الفجر أكثر من غيرها، وكان يطيل في فجر يوم الجمعة عن بقية الصلوات، وكان يطيل في صلاة الكسوف جداً**»، «**وقرأ بالصافات في المغرب**» (رواه النسائي وصححه الألباني)، **وقرأ بطولى الطوليين (الأعراف) في المغرب** (رواه البخاري). وهذه اختبارات للإيمان في القلوب؛ فلا ينبغي للمؤمن أن يغفل عن نفسه فيرى الإيمان يضعف فيها شيئاً فشيئاً ولا يسعى لتلافي هذا الضعف وعلاجه.

٩- قد يـجد البعض حلاوة الصلاة فيقصِّر منها اكتفاءً بمـا يجده في قلبه من حلاوة، وهذا خطأ لأنّ هذه الحلاوة كالنار إذا لم تُتعَاهد بالوقود خبت وانطفأت. وزادُ هذه الحلاوة هو الإطالة في الصلاة والإكثار من الذكر فيها وإلّا ذهبت هذه الحلاوة.

وقد أشار النبي ﷺ إلى أهمية إطالة الركوع والسجود والإكثار من التضرع والثناء والسؤال والابتهال فيهما بسنته الفعلية وبإخباره ـ كما قدمنا ـ أنّ ذنوب العبد توضع على عاتقه إذا صلّى، فتحات عنه كلما ركع أو سجد.

١٠- ورد عن بعض الصالحين أنّهم كانوا يخففون الصلاة فلما سُئِلوا عن ذلك قالوا: **نبادر الوسواس** وبعضهم قال: **هذا أَنْفَى للرياء وأَذْهَبُ للوسواس**. ولا تعارض ـ والله أعلم ـ بين قول مَنْ قال بإطالة الصلاة وبين من كان يخفف لهذه العلة، فإنّ الأصل هو إطالة الصلاة لحديث: «**إذا صلّى أحدكم الناس فليخفف، وإذا**

صلّى لنفسه فليطوِّل ما شاء» (رواه البخاري ومسلم). ولكن ربما كان المؤمنُ مشغولَ البالِ بالعلم أو بأمرٍ من أمور الدعوة أو حتى بالمباح من أمور المعاش، فلو أطال حينئذٍ لجال بفكره في أمره هذا دون معاني الصلاة، فيكون الإسراع هاهنا مع التدبر والتفهم لما يقول أولى من الإطالة التي تجلب الوسوسة وتشتت الخاطر، بل ربما راءى بإطالته الصلاة. كما أنّ حقيقة الخشوع في الصلاة هي حصر الذهن والفكر فيما يقرأ المرء ويسمع في صلاته، وهذا يحتاج إلى عقد نية وعزيمة قوية حتى لا يتشتت الفكر. والنفس إذا علمت بضيق الوقت وكثرة الشغل قويت عزيمتها وانتفت عنها خواطرها فيما لا يتعلق بالصلاة. ومن الأسباب الأساسية لجمع القلب على الصلاة نفي الشواغل عن النفس قبل الدخول؛ ففي الحديث: «**لا صلاة بحضرة طعام ولا هو يدافع الأخبثين**» (رواه مسلم). وقال **أبو الدرداء**: «من فقه الرجل أن يبدأ بحاجته قبل دخوله في الصلاة ليدخل في الصلاة وقلبه فارغ».

١١- الخشوع في الصلاة هو تعقل المرء لما يقرأه أو يسمعه والانشغال في الصلاة عن ذلك ينافي الخشوع، ولو كان انشغالاً بأمرٍ شرعي كمن يفكر في مسائل العلم أو الدعوة في صلاته وغير ذلك.

إلّا إذا كان ذلك سبباً لتفهمه ما يقوله في صلاته أو يسمعه. نعم، هو أكمل حالاً ممّن يفكر في صلاته في أمور الدنيا. ولكن الخشوع هو التفكر في أمر صلاته ليس إلّا.

١٢- في مداومة النبي ﷺ على الإمامة دليلٌ على أنّ ذلك من أسباب الخشوع في الصلاة، وهذا أمرٌ صحيح مشاهد، فإنّ تفهم المرء وتدبره في صلاته يزيد إذا كان إماماً. ولكن يُخشى من آفة الرياء وطلب السمعة بحسن الصوت والعجب به، ولذلك منع مَنْ منع مِن الإمامة. والسلامة لا يعدلها شيء، ولكن مَنْ كان يكره من نفسه خواطر الرياء وغيرها وأمّ بالناس ليكون أخشع له، فهذا قد أدّى ما ينبغي عليه. وأمّا رجاء انقطاع الخواطر بالكلية فلا يكاد يسلم من ذلك أحد.

١٣- في استعاذته ﷺ من الشيطان عند دخول المسجد وكذا عند الخروج كما في الحديث: «**كان إذا دخل المسجد يقول: أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم**» (رواه أبو داود وصححه الألباني)، وقال: «**إذا خرج أحدكم من المسجد فليقل: اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم**» (رواه ابن ماجه وصححه الألباني)، وكذا استعاذته قبل القراءة: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**» (رواه عبد الرزاق وحسنه الألباني). دليلٌ على أهمية التنبه للشيطان في الصلاة، وأنه لن يدخر وسعاً في صدّ المرء عن الخشوع في الصلاة. وعلم المرء بذلك من أول صلاته يعينه على التركيز وجمع القلب على الخشوع في الصلاة.

١٤- في مبادرته ﷺ بعد صلاته بالاستغفار تنبيهٌ على أنّه ينبغي للمرء بعد انتهائه من صلاته أن يكون مستشعراً التقصير والتفريط في أمر الله عموماً وفي أمر الصلاة خصوصاً. فمن لم يستشعر ذلك فاستغفر بعد

obeikandl.com

صلاته تواضعاً فهذا دليلٌ على عدم اكتمال علمه بالله وعلى نقص إيمانه. كما أنّ فيه دليلاً ـ كما قدمنا ـ على أهمية الأخذ بالأسباب التي من شأنها أن تورث القلب التدبر والخشوع عند الاستغفار، ومن أكبرها المداومة على استحضار السيئات، والله أعلم.

١٥- في إطالة النبي ﷺ لصلاته إذا صلّى وحده تربية عظيمة للنفس؛ إذ حبسها على الصلاة مع إطالتها وإدمان التضرع والذكر فيها يورث النفس الإخبات والطمأنينة كما أنه يؤدّب النفس ويعوِّدها الصبر على الطاعات الأخرى؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ (البقرة: ٤٥)، فجعل الصلاة سبباً للإعانة على سائر الطاعات مع الصبر. فعلى المؤمن أن يصابر على الصلاة ويصطبر عليها ويطيل فيها لتتعود نفسه الصبر على الصلاة بل وسائر الطاعات.

١٦- نُقل عن بعض الصالحين أنه كان إذا سمع النداء تغير لونه وقال: إنّه ليذكرني النداءُ بالصلاة النداء يوم

القيامة. ودخل أحدُ الصالحين على سليمان بن عبد الملك فقال: اذكر يوم الأذان. فقال: وما يوم الأذان. قال: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأعراف: ٤٤)، ووجه تذكر القيامة بالأذان ـ والله أعلم ـ هو قول المؤذن: حيّ على الصلاة ثمّ حيّ على الفلاح. فالفلاح هو البقاء في الجنة والتنعم فيها، فكأنّ المؤذن يقول: تعالوا إلى الصلاة فإنّ الالتزام بها والمحافظة عليها طريق الفلاح والفوز. فإذا تفكر المرء عند سماع النداء في ذلك انتقل بذهنه إلى يوم القيامة حيث يُنادى على رؤوس الخلائق: قد سعد فلانٌ سعادةً لا يشقى بعدها أبداً أو شقي شقاوةً لا يسعد بعدها أبداً.

١٧- ينبغي للمرء حتى يخشع في صلاته أن يتحرى الصلاة خلف الأتقياء الذين تظهر الخشية في وجوههم ومن قراءتهم، قال ﷺ: «**أحسنُ الناس قراءةً الذي إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله**» (صحيح الجامع: ١٩٤). إنها الصلاة التي تُرغِّب المرء في قراءة القرءان وحفظه.

وتحزنه على سوء حال نفسه إذ لم يصل إلى إيمان هؤلاء الصالحين وما ذاق حلاوة القرءان والصلاة مثلهم. إنها الصلاة التي يستشعر فيها الناسُ خشوع إمامهم وإقامته لصلاته، قال **عمرو بن دينار**: ما رأيتُ مصلياً قط أحسنَ صلاة من عبد الله بن الزبير.

١٨- في قوله ﷺ عند دخول المسجد: «**اللهمّ صلّ على محمدٍ، رب اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك**» وعند خروجه: «**اللهمّ صلّ على محمدٍ، رب اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب فضلك**» (رواهما الترمذي وابن ماجة وصححهما الألباني). في قوله ذلك عند دخول المسجد وعند الخروج منه تنبيهٌ على أهمية استحضار الذنوب على وجه الدوام؛ فإنّ ذلك من أكبر أسباب رقة القلب ومِنْ ثَمَّ الخشوع في الصلاة. قال عمر بن الخطاب: جالسوا التوابين فإنّهم أرق الناس أفئدةً. كما أنّ في قوله عند الخروج: «**افتح لي أبواب فضلك**» تنبيهٌ على أنّ العبد رغم أنه دخل المسجد وصلى لربه وذكره ودعاه

وأثنى عليه ومجده إلّا أنّه يستشعر تقصير نفسه، فما يطلبه من ربه إنما هو فضلٌ من الله ليس إلّا. وأمّا قوله عند الدخول: «**وافتح لي أبواب رحمتك**» ففيه بيان عظيم الرحمة التي من الممكن أن تدرك المعطي في المسجد إذا هو أحسن الصلاة والتضرع والثناء والإلحاح؛ قال ﷺ: «**ما من مسلم يتوضأ فيسبغ الوضوء، ثمّ يقوم في صلاته فيعلم ما يقول، إلّا انفتل وهو كيوم ولدته أمّه**» (رواه مسلم). بل وسيُهدى ويُعصم فيما يستقبل من أمره ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥). وأمّا صلاة هؤلاء الذين قال عنهم ﷺ: «**إنّ الرجل لينصرف وما يكتب له إلّا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها**» (رواه أبو داود وصححه الألباني)، فلا تدخل في هذا الحديث.

١٩- في مشروعية صلاة النوافل قبل الصلاة وكذا التبكير إلى المساجد والدعاء بين الأذان والإقامة تنبيهٌ على

أهمية تهيأة القلب قبل الصلاة وأهمية الاستعداد للخشوع. فعلى المرء أن ينتبه لذلك فلا يهجم على صلاة الفريضة قبل تهيأة القلب للصلاة. وممّا يؤكد هذه العلة نهيه ﷺ عن الإسراع في المشي فوق المعتاد عند إتيان المسجد، فقال: «**إذا أتيتَ الصلاة فائتها بوقارٍ وسكينةٍ**» (الصحيحة: ١١٩٨)، وعلة ذلك أنّ الإسراع يشوش على القلب ويمنعه الخشوع. فالذي ينبغي لمن يأتي المسجد أن يمشي بالسكينة والوقار كما أمر النبي ﷺ وإن شغل نفسه أثناء مشيه بالذكر والفكر كان أولى لصلاح قلبه في صلاته وفي أمره كله.

٢٠- قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ (لقمان: ١٤). **قال القرطبي**: «قال سفيان بن عيينة: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما» اهـ.

فجعل أداء الصلاة شكراً لله وفي ذلك تنبيهٌ على أهمية استحضار نعم الله لمن أراد الخشوع ـ كما تقدم ـ ويتضمن

كذلك الحث على الإطالة فيها قدر المستطاع، فإنّ الكريم هو الذي يردّ الجميل بأكثر منه. وإذا كان هذا ممتنعاً بين العبد وربه، فلا أقل من بذل الوسع في شكر الله. ولذا ـ والله أعلم ـ جمع الرسول بين الاستغفار وطلب الإعانة على الشكر بعد الصلاة، فكان يستغفر ثلاثاً، ويقول: «**اللهمّ أعني على شكرك وذكرك وحسن عبادتك**» كما تقدم.

كما يتضمن جعل الصلاة شكراً التنبيه على أهمية تقديم الناس للإمام الصالح التقي؛ فإنّه إمامهم بين يدى ربهم وشفيعهم في شكر الملك الجليل والثناء عليه بنعمه وإحسانه.

كما يتضمن التنبيه على أهمية الإكثار فيها من الثناء على الله بما هو أهله؛ وذلك بما ورد عن النبي ﷺ في الصلاة من أذكار وأدعية مع تكرارها وإطالة الثناء بها. وقد كان ﷺ يقول في سجوده: «**لا أحصي ثناءً عليك بل أنت كما أثنيت على نفسك**» (رواه مسلم). وفي حديث

الشفاعة: «**فأقع ساجداً لربي، ثمّ يفتح الله عليّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحدٍ قبلي**» (متفقٌ عليه). فدل على أنّ أكمل الثناء ما كان في حال السجود.

٢١- من أكبر أسباب الخشوع جمع الهمّ وتأكيد العزم على الخشوع ومجاهدة الشيطان في ذلك من أول الصلاة إلى آخرها، ولعلّ ركنية تكبيرة الإحرام ولزوم قول المصلي في انتقالات الصلاة «الله أكبر» إشارةٌ على ذلك؛ فإنّ فيها تنبيهاً للمصلي على أنّ الصلاة والخشوع فيها لله أكبر من كل ما قد يشغله من أمور الدنيا.

فعلى المصلي أن يشحذ ذهنه وقلبه للتفكر في ما يقرؤه في صلاته من آياتٍ وأذكارٍ وأدعيةٍ، وليستحضر أنّه بين يدي الله يخاطبه بذلك، واللهُ مطلِّعٌ على ما في قلبه ويسمع دعاءه وتسبيحه وقراءته.